من أخبار المسافرين (٢)

بلقيس تسافر إلى سليمان

وهذه قصة لإحدى المسافرات اللواتي كان لهن صيت ذائع وشهرة بعيدة تناقلتها الأجيال عبر التاريخ، إنها مسافرة أمْتَعنا القرآنُ الكريم بالحديث عنها وأخبرنا الله تعالى خبرها، وقصّ علينا أمرها، وإن الآثار التاريخية لاتزال إلى اليوم ناطقة بمآثر هذه الملكة العظيمة العاقلة الأريبة الأديبة، وكانت لها منجزات عظيمة من أبرزها ترميمها لسدِّ مأرب بعد انهدامه.

وتعال معي أخي القارىء في وقفة سريعة نتأمل خلالها تلك القصة الرائعة التي أوردها القرآن الكريم في أجمل أسلوب وأعظم عبارة، ولنقف على أحداث السفر الذي بدأته بلقيس من اليمن إلى بيت المقدس:

كتب سليمان كتاباً إلى بلقيس ـ ملكة سبأ ـ وقومها، وأعطاه الهدهد فحمله وذهب به إلى بلادهم، فألقاه إليها فأخذته ففتحت ختمه وقرأته، فإذا فيه: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ فجمعت عند ذلك أمراءها ووزراءها وكبراء دولتها ومملكتها ثم قالت لهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾ ثم قالت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾﴾ فقالت: ﴿إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً﴾ فقال الرب عز وجل: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾﴾ ثم قالت: ﴿وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾ فبعثت إليه بهدية عظيمة فلم ينظر سليمان إلى ما جاؤوا به

بالكلية ولا اعتنى به بل أعرض عنه وقال منكراً عليهم: ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾﴾ وأما أنا فلا أقبل منكم إلاَّ الإسلام أو السيف ﴿ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ أي مهانون مدحورون، فلما رجعت إليها الرسل بما قال سليمان قالت: إني قادمة عليه بملوك قومي لأنظر ما أمره وما يدعو إليه من دينه ثم أمرت بسرير ملكها الذي كانت تجلس عليه فجعل في سبعة أبيات ثم أقفلت عليه الأبواب ثم قالت لمن خلفت على سلطانها: احتفظ بما قبلك وسرير ملكي فلا يخلص إليه أحد من عباد الله ولا يَرَيَنَّهُ أحد حتى آتيك ثم شخصت إلى سليمان في اثني عشر ألفاً فلما بلغ سليمان أنها جائيةٌ وكان قد ذُكِرَ له عرشها فأعجبه وكانت عليه تسعة مغاليق فَكَرِه أن يأخذه بعد إسلامهم وقد علم نبي الله أنه متى أسلموا تَحرم أموالهم ودماؤهم فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ أي مارد من الجن ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾﴾ أي قوي على حمله أمين على ما فيه من الجواهر، وقال سليمان عليه السلام: أريد أعجل من ذلك. ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ وهو آصف كاتب سليمان عليه السلام ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ أي ارفع بصرك وانظر فإنه لا يكل بصرك إلاَّ وهو حاضر عندك فلما عاين سليمان ومَلَؤُهُ ذلك ورآه مستقراً عنده ﴿قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ﴾ أي هو غني عن العباد وعبادتهم كريم في نفسه وإن لم يعبده أحد؛ فإن عظمته ليست مفتقرة إلى أحد. فأمر بعرشها أن يُغير بعض صفاته

ليختبر معرفتها وثباتها عند رؤيته هل تقدم على أنه عرشها أو أنه ليس بعرشها فقال: ﴿ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ﴾ أي عرض عليه عرشها وقد غيّر ونُكّر وزيد فيه ونقص منه، فكان فيها ثبات وعقل، ولها لبٌّ ودهاء وحزم، فلم تقدم على أنه هو لبعد مسافته عنها، ولا أنه غيره لما رأت من آثاره وصفاته وإن غُيّر وبُدّل ونُكّر، فقالت: ﴿ كَأَنَّهُۥ هُوَ ﴾ أي يشبهه ويقاربه وهذا غاية في الذكاء والحزم، فقال سليمان: ﴿ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾ ثم ﴿ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ ﴾ وذلك أن سليمان عليه السلام أمر الشياطين فبنوا لها قصراً عظيماً من قوارير ـ أي زجاج ـ وأجرى تحته الماء الذي لا يعرف أمره يحسب أنه ماء، ولكن الزجاج يحول بين الماشي وبينه، ثم قال لها: ادخلي الصرح ليريها ملكاً هو أعز من ملكها، وسلطاناً هو أعظم من سلطانها، فلما رأته حسبته لجة، وكشفت عن ساقيها، أي لم تشك أنه ماء تخوضه، فقيل لها: ﴿ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ﴾ فلما وقفت على سليمان دعاها إلى عبادة الله وحده وعاتبها في عبادة الشمس من دون الله. ﴿ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾ فأسلمت وحسن إسلامها.

ويقال إن سليمان عليه السلام تزوجها وأقرّها على مملكة اليمن وردّها إليها وكان يزورها في كل شهر مرة فيقيم عندها ثلاثة أيام ثم يعود على بساط الريح!!

أدعية السفر

ما أعظم هذا الدين، وما أكمله وأجمله، وأسعدنا به! تَحُفُّ بك تعاليمه الرائعة، ويغمرك بآدابه الجامعة؛ فما من أمر من أمور الإنسان ولا شأن من شؤون حياته إلاَّ وقد اهتم به الإسلام وبيَّن آدابه وأحكامه مهما كان ذلك الأمر صغيراً أم كبيراً، عظيماً أم حقيراً، ومن ذلك السفر فالمرء يسافر إما طلباً للعلم، وإما فراراً بالدين، وإما سياحة في الأرض، وإما تجارة وإما إلى غير ذلك من أغراض السفر. ومع ذلك يعطيه دينه آداباً جامعة ووصايا نافعة وكلمات ماتعة، فيسافر المسلم وكأنه في صلاة منذ أن يضع قدمه على راحلته يبدأ بذكر الله ثم إذا انطلق دعا بدعاء السفر، ثم في رحلته إذا صعد جبلاً كبر وإذا نزل وادياً سبح ثم إذا نزل منزلاً استعاذ بالله... الخ.

والمتأمل في أدعية السفر وآدابه يجد لها من الروعة، والأثر في النفس الشيء العجيب، فهي ذات مذاق متميز، وطابع خاص، وأسلوب مؤثر يقوي صلة العبد بربه، ويدعم اعتماده على خالقه، ويؤكد فقره واحتياجه إلى حفظه، ويذكره بنعمته عليه وبسفره الأخير إليه.

١ـ دعاء الركوب والسفر:

قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾﴾

وعن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ أن رسول الله ﷺ كان إذا استوىٰ على

كنا له مقرنين وإنا إلى ربنا لمنقلبون. اللهم إنا نسألك في سفرنا هذا البر والتقوى ومن العمل ما ترضىٰ اللهم هوِّن علينا سفرنا هذا واطوِ عنا بُعده اللهم أنت الصاحب في السفر والخليفة في الأهل. اللهم إني أعوذ بك من وعثاء السفر، وكآبة المنظر، وسوء المنقلب في المال والأهل والولد» وإذا رجع قالهنَّ وزاد فيهنَّ: **«آيبون تائبون عابدون لربنا حامدون»** [رواه مسلم]

وعن علي بن ربيعة قال: شهدت عليَّ بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ أُتى بدابة ليركبها فلما وضع رجله في الركاب قال: بسم الله، فلما استوىٰ على ظهرها قال: الحمد لله الذي سخَّر لنا هذا وما كنا له مقرنين وإنا إلى ربنا لمنقلبون، ثم قال: الحمد لله، ثلاث مرات، ثم قال: الله أكبر، ثلاث مرات، ثم قال: سبحانك إني ظلمت نفسي فاغفر لي إنه لا يغفر الذنوب إلاَّ أنت، ثم ضحك. فقيل: يا أمير المؤمنين من أي شيء ضحكت؟ قال: رأيت النبي ﷺ فعل كما فعلت ثم ضحك. فقلت: يارسول الله من أي شيء ضحكت؟ قال: **«إن ربك سبحانه يعجب من عبده إذا قال: اغفر لي ذنوبي يعلم أنه لا يغفر الذنوب غيري!»** [رواه أبوداود والترمذي]

وعن جابر ـ رضي الله عنه ـ قال: كنا إذا صعدنا كبَّرنا، وإذا نزلنا سبَّحنا. [رواه البخاري].

٢ـ الدعاء إذ خاف ناساً أو غيرهم:

عن أبي موسى الأشعري؛ أن رسول الله ﷺ كان إذا خاف قوماً قال: **«اللهم إنا نجعلك في نحورهم ونعوذ بك من شرورهم»** [رواه أبوداود]

٣ـ ما يقول إذا نزل منزلاً:

عن خولة بنت حكيم ـ رضي الله عنها ـ قالت: سمعت رسول الله ﷺ

يقول: «من نزل منزلاً ثم قال: أعوذ بكلمات الله التامَّات من شر ما خلق لم يضرّه شيء حتى يرتحل من منزله ذلك» [رواه مسلم]

٤ـ ما يقول إذا أقبل الليل:

عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: كان رسول الله ﷺ إذا سافر فأقبل الليل، قال: «يا أرضُ ربي وربك الله، أعوذ بالله من شرك وشر ما فيك وشر ما خُلق فيك، وشر ما يدب عليك، وأعوذ به من شر أسدٍ وأسود ومن الحية والعقرب ومن ساكن البلد ومن والد وما ولد» [رواه أبوداود]

openkandl.com